الافتتاحية

(٢)

الاسلام هو الطريق الوحيد لتحقيق سعادة البشرية

فضائل الاسلام

اتفق أهل العقل السليم على أنه ليس هناك طريق أحسن وأنفع من طريق الأنبياء فى اصلاح عوائد الناس ومعاملاتهم وأخلاقهم وملكاتهم، سواء كانوا من الخاصة والعامة، أو الرعية أو الحكام، وذلك بعد أن قاموا بالمقارنة بين النظم والتعاليم المختلفة التي تهدف الى اصلاح شؤون الناس وارساء دعائم المجتمع على الخير والسعادة.

وحيث إن طريق الأنبياء قد تعرض للانقسام بتأثير من الآراء المختلفة والأفكار المتنوعة، فاننا نبرز هنا فضائل الاسلام وخصائصه حتى نعرف مدى نجاحه في حل مشكلات المجتمع.

١ – فأولا: الجمع والشمول، ونعني بذلك أن الشريعة الاسلامية شامل ومحيط بجميع أنواع الأحكام والأخلاق، فكتب التفسير والحديث والفقه تتكفل بتفصيل العذاب والثواب، والجنة والنار، والوعد والوعيد، والاخلاص والتوحيد، والعقائد والعبادات، وأحكام الطهارة والنجاسة، والصوم والصلاة، الزكاة والحج، والأوقاف والصدقات، والنكاح والطلاق، وتحقيق النسب، وتفصيل النفقة، وبيان الحدود والسرقة، وتقسيم الوظائف والغنائم، والعدة والرضاعة، وأحكام البيع والمرابحة، والافتاء والقضاء، والعارية والوديعة، والمزارعة والشفعة، والدين والهبة، والصيد والذبائح، والملابس والأشربة، والميراث والوصايا، والزهد والتقوى، والصبر والتوكل، وآفات اللسان وأمراض القلب، والانابة الى الله والرضا بقضائه، والقيام بين الخوف والرجاء، وذم الدنيا والركون اليها، وعدم ثبات الحياة، وتصريح حقائق الموجودات وشرح محاسن الكون بحيث يساعد في اثبات ذات الله تعالى وصفاته، وأذكار التقديس ودعوات التمجيد، وفضائل العلم والعبادة، وتعليم التحضر

والمعاشرة، ومراسم العيادة والعزاء، وآداب السلام واللقاء، وشؤون الملك والمال والأوقاف، وأصول العدل والانصاف، وقوانين التعزير والسياسة، وتعليم وتربية الأزواج والأطفال، والوعظ والارشاد، ومبادىء الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن، وغير ذلك من الأمور والأحكام التي يطول تفصيلها، وقد توفرت في هذه المواضيع كتب العلماء وأئمة الدين مما يبرهن على شمول الشريعة المحمدية وجامعية أحكامها، ومن هنا نرى أن الحوادث المتجددة أيا كان نوعها، نجد لها شاهدا، وكذلك نجد لكل صورة من الوسائل والمقاصد حكم الجواز أو الكراهية. والقرآن الكريم نفسه قد صرح بأنه يحتوي على جميع الأحكام الأصول اجمالا أو تفصيلا، وتصريحا أو اشارة، قال تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) النحل٨٩. ولم تتوفر هذه الميزة في شيء من الشرائع الماضية والكتب السابقة.

وشمول الكتاب والشرع كمال عظيم في نفسه، ودال على عظمة منزل الكتاب والشرع، ثم انه يلعب دورا كبيرا في الجام الشهوات ودفع الأوهام، ويحافظ على القصد والتوسط في العبادات والمعاملات والأخلاق، ومن هنا لا تكون فتوى المجتهد ملزمة باستقلالها، ولا قول وعمل المضل والمغوي جديرا بالعمل. والحق أننا بهذا الشمول نجد حكم كل قضية وحل كل مشكلة في توجيهات الشارع بيسر وسهولة، وهذا هو سر سلامة المسلمين من الضلال، أسبغ الله تعالى عليهم هذه النعمة.

وعن هذا الشمول جاء في المجلد السادس من "موسوعة جيمبرز": جزء الاسلام الذي يكشف عن رأي مؤسسه(١) في غاية الكمال والتأثير، أي أخلاق القرآن ومواعظه ونصائحه، وهذه النصائح لم توجد في سورة أو سورتين، بل دخلت وامتزجت في بناء الاسلام العالي الشاهق مثل سلسلة الذهب، ولذلك نراه قد شدد في ذم الظلم والكذب والغرور والحقد والغيبة والاستهزاء والعداوة والاسراف والطمع والزنا والخيانة والنفاق، ووصفها بأنها خروج عن الدين ومروق منه، وفي الجانب الآخر أثنى على ابتغاء الخير ونفع الناس والعفة والحلم والصبر والقصد والصدق وعلو الهمة والحياء والاصلاح والاخلاص والتوكل والانقياد، وجعلها عماد التقوى وسمات المؤمن، انتهى.

(١)لا يصح هذا التعبير، فان محمدا ﷺ لم يكن مؤسسا للاسلام، بل الله تعالى هو أنزل هذا الدين على رسوله ﷺ، فالله تعالى هو المؤسس والمنزل لهذا الدين.

٢ – وثانيا: جميع العقائد والأحكام في الاسلام توافق العقل والقياس، أى ليس حكم من أحكامه يستحيل ثبوته بنظر العقل، بل كل عقيدة من عقائده محكمة مرضية بشهادة العقل، وكل مسألة من مسائله سواء كان من الأصول أو الفروع، مستحسن رزين، وليس في الاسلام أمر يجب قبوله دون سبب معقول، ولا شيء يجب اذعانه مع مخالفته للعقل والبداهة. والاسلام يختلف في ذلك عن سائر الأديان، لأن عقل الانسان، الذي هو مناط للتكليف، يتردد ويحتار في قبول العقائد التي تؤمن بها، بل يضطر لاعتقاد خلافها، ويجزم ببطلانها، والأصول الموضوعة لدى اليهودية والنصرانية وما يعتقده أهل الجاهلية باسم الدين، كل ذلك من قبيل ما يمانعه العقل ويستحيله، وتفصيل ذلك في كتبهم الدينية التى يؤمنون بها.

يقول المستشرق (گاڈ فرى هيگنس): ان ديانة محمد (ﷺ) بين الديانات التى درستها فى غاية الحكمة والسذاجة، وبطهارته الأصلية تقل فيه المشكلات، وأي عقيدة تضارع عقيدة الاسلام فى السهولة والسذاجة، ان الاسلام يوجب أن يقول الانسان: "لا اله الا الله، محمد رسول الله". ان الاسلام لا يقر الايمان بدون العمل، ولا يقول بنفع التوبة وقت الاحتضار، وبتأثير الواسطة في النجاة. فالحقيقة أن مثل هذه الأمور لا توجد في الاسلام، ان المسائل الدينية التي جاء بها موحد العرب (ﷺ) سهلة معقولة، انه يدعو الى عبادة الله وحده، دون الاعتقاد بالأم أو السر أو المعجزة المصطنعة ويقرر أنه (عليه السلام) بعث بصفته بشرا للدعوة الى عبادة رب واحد. انتهى (ص٩١)

٣ – وثالثا: مراعاة الوسطية والعدل فى جميع أحكام الدين وتكاليف الشرع، وتجنب الافراط والتفريط فى الأبواب كلها، وهذا الأمر أيضا من خصائص الاسلام. والغريب أن الأديان كلها ضلت في باب الألوهية والنبوة، ومن ذلك أن أتباعها يعتقدون اتحاد الواجب والممكن دون مبالاة، ولكن الاسلام حل هذه العقدة، وكشف هذا السر بغاية الحكمة والجودة، انه فرق بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، والمالك والمملوك، والساجد والمسجود، ونص على ذلك في كتابه العزيز: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون الا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون– الأنبياء: ٢٦–٢٨).

وهذه الآيات الكريمة تؤكد على تنزيه الله تعالى من اتخاذ الولد، ومن سائر العيوب في جانب، وفي الجانب الآخر توضح منزلة الملائكة، وخشيتهم، واخلاصهم في اتيان ما أمرهم الله به دون تأخير.

والآية الكريمة: (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم اله واحد – الكهف:١١٠) توضح أمرين: أحدهما أن الأنبياء والرسل يشاركون أبناء جنسهم من ناحية الذات، والصفات ولوازم البشرية وخواصها، ويمتازون عنهم من ناحية الوحي الالهي وتبليغ الأحكام.

وهناك فارق آخر بين المسلمين وغيرهم. إن المسلمين يعتقدون في أنبياء الله ورسله أنهم معصومون من الشرك في الذات والصفات، ومن ارتكاب المظالم والمعاصي، ومحترزون من الرذائل والفواحش، ومستمرون في سعيهم لنشر الحسنات والخيرات واصلاح العادات وتعليم العبادات.

أما غير المسلمين فانهم يحكون أو يكتبون باطناب أحوال وقصص أكابرهم من ارتكاب المنكرات والغلو في الشهوات، يعتقدون في ذلك معجزة وكرامة، أو يقصدون شرح الأحداث والوقائع. ثم انهم يجعلونهم آلهة، أو يصفونهم بصفات الله الكمالية، ويزعمون أنهم يتصرفون في العالم بالاستقلال أو النيابة !

ويعتقد المسلمون في الأنبياء عليهم السلام أنهم أعز وأكرم الخلق عند الله، لقلة الوسائط وكثرة العبادة وبالاضافة الى ذلك حينما يذكر عندهم الأنبياء والصلحاء فانهم يترحمون عليهم، ويترضون الله لهم حسبما تقتضي مكانتهم، بينما نرى غيرهم يذكرون الأكابر دون فصل وتمييز، بل يجردون اسم الجلالة أيضا من صفات التنزيه والتمجيد !

ولا يغيبن عن البال أن مقتضى العدالة ليس معناه اطلاق زمام الظالمين يعيشون في الأرض فسادا، وارخاء عنان المفسدين يخربون ويدمرون، بل لابد من قانون رادع يمنع الخارجين على القيم الدينية والخلقية، ولابد من نظام يحافظ على سلامة المجتمع، وعلى حقوق الناس. (وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفى وأصلح فأجره على الله، انه لا يحب الظالمين، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل – الشورى: ٤٠–٤١)

والمعروف عن شرائع أهل الكتاب أنها كانت قاسية جدا لما كانوا يحتالون ويتعنتون،

أما الشريعة الاسلامية فجاء ت سمحة ميسرة يستطيع الانسان أن يعمل بها دون عناء ومشقة، وذلك لخلوها من الافراط والتفريط، انها مهدت للناس طريق العدل، وهو الذي عبر عنه بالفطرة والصراط المستقيم، فليست مسألة من مسائل هذه الشريعة خارجة عن الأصل المذكور. وكلما نظرنا في هذه المسائل، برزت لنا محاسن ولطائف جديدة، بخلاف الفرق والديانات الأخرى، فان أصولها وعقائدها بعيدة عن العدالة، وفروعها وأطرافها داخلة في الافراط والتفريط. فكما أن الشريعة الاسلامية أفضل وأكمل من جملة الأديان والشرائع فى استيعاب العقائد والمسائل بالكمية، فكذلك تتصف بالجودة والجمال من ناحية القوة والاستقامة والعدالة والوسطية من حيث الكيفية.

٤ - ورابعا: حفظ كتابه بلفظه، والحفاظ على سيرة رسوله بأحواله ومعاملاته وعاداته وعباداته، مع فحص ذلك كله في ضوء قواعد ثبوت السمعيات.

ويحسن أن نشيرها أن أهل الكتاب لم يقوموا بجمع ما أنزل الى أنبيائهم من كلام الله وأحكامه بين الدفتين، ولم يدونوا أحوال الأنبياء وطرق عباداتهم وحياتهم فى ضوء أصول النقد وتنقيح الرواية. ثم انهم لم يحافظوا على لغة كتابهم، ولا ميزوا بين كلام النبي وغيره، بل جمعوا مضامين الالهام والوحي، وآثار النبي وأحواله، ومواعظ الحواريين وأتباعهم، وبيان شأن النزول وتأويل المؤلفين، كل ذلك في مجلد واحدا، وأطلقوا بأنفسهم على هذه المجموعة اسم الوحي، ونسبوا ذلك الكتاب الى النبي الذي ذكرت فيه أحواله والأسماء والقصص الأخرى. وكل من يطالع العهد العتيق والجديد يصدق ما بيناه. وبعض الباحثين من أهل الكتاب أنفسهم صرح بعد دراسة واسعة بأن نسخ الكتابين ليس بحيث يوثق بها من ناحية المحتوى والمضمون واللغة، ومعنى ذلك أنه ليس هناك سبيل للاعتماد على كتاب العهد العتيق وكتاب العهد الجديد.

أما القرآن الكريم، كتاب الاسلام والمسلمين، فقد بذل المسلمون عناية بالغة في حفظه وصيانته، وذلك بأن جمعوا كلام الله تعالى الذي نزله بواسطة جبريل على محمد ﷺ، وجعلوه على حدة، ودونوا أحاديث الرسول ﷺ التي تحتوي على طرق عبادته ﷺ ومعاملاته في كتب الحديث والسير على حدة، وهكذا بينوا آثار الصحابة والتابعين وكيفية

النزول وأحوال المفسرين وما الى ذلك منفصلة عن غيرها حتى لا يداخل أحدا شك ولبس، ثم انهم نسبوا كل كتاب الى مؤلفه، مهما كان موضوعه ومحتواه.

وبعد هذا الفصل والتمييز قد ركزوا عنايتهم بحفظ القرآن واستظهاره دون تفرقة بين الغني والفقير، والعاقل والسفيه. والنبي ﷺ بنفسه قد قام باستظهاره لفظا لفظا، وكذلك حمل المئات والألوف على استظهاره بمرأى منه.

وهناك أمور رغبت المسلمين فى حفظ القرآن، وسهلته لهم. الأول أن القرآن الكريم أحاط بجميع شؤون الدين والدنيا، وهدى وأرشد الى أحكام المدنية والاجتماع وأحوال الدين والدنيا كلها.

والثاني أن كثيرا من الفرائض والعبادات قد اشترط لها حفظ القرآن، مثل الصلوات المفروضة والنافلة وصلاة التراويح وما الى ذلك، فالذي لا يحفظ القرآن الكريم، كله أو بعضه، يصعب عليه أداء هذه العبادات دون شك.

والثالث أن حفظ القرآن الكريم قد وعد الرسول ﷺ عليه أجرا عظيما، لأنه عين العبادة، ثم انه وسيلة لتحقيق تواتر القرآن الذي هو فرض كفاية على جمهور الأمة. ومن هنا رأينا أن الصحابة رضي الله عنهم نشطوا وأخلصوا في حفظ القرآن وضبطه، وبالغوا في ذلك وأحسنوا.

والرابع أن كل واحد منهم، ذكرا كان أو أنثى، شيخا كان أو شابا رغب في حفظ الكلام الفصيح والبليغ، وبهذا السبب اشتهر العرب بفصاحتهم، وحيث إن القرآن احتل مكانة أعلى في الفصاحة والبلاغة، فانهم قد أقبلوا على حفظه وضبطه برغبة بالغة.

والخامس أن حفظه كان سببا للكرامة والفخر والنفع في الدنيا.

فهذه هي الوجوه التي دفعت المسلمين الى العناية بالقرآن الكريم وحفظه وضبطه، فهناك عدد كبير من الرجال والنساء قد عرفوا بحفظ القرآن، وخلدوا أسمائهم في التاريخ.

(يتبع)

د. مقتدى حسن محمد ياسين الأزهرى

☆☆☆